نوابغ العرب

٢

أحمد شوقى

أمير الشعراء

بقلم : محمود عوض

بريشة : مصطفى حسين

الطبعة الثالثة

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عوض ، محمود
أحمد شوقى: أمير الشعراء / بقلم محمود عوض
بريشة مصطفى حسين — ط ٣— القاهرة : دار المعارف ، ٢٠٠٦.
٢٠ ص ؛ ٢٨,٥ سم — (نوابغ العرب ؛ ٢)
تدمك : ٤ — ٧٠١٦ — ٠٢ — ٩٧٧
١ — الشعراء العرب — مصر.
٢ — أحمد شوقى، أحمد شوقى بن على، ١٨٦٨ - ١٩٣٢
(أ) حسين ، مصطفى (رسام).
(ب) العنوان

ديوى ٩٢٨,١٦٢

رقم الإيداع ٢٢٥٧٠/ ٢٠٠٦   ٧/٢٠٠٦/٦٢

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف : ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس : ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

أحـــمَد شـــوقى

دخلت المرأة غرفة الخديو إسماعيل فى قصره حاملة بين يديها حفيدها الصغير ذا السنوات الثلاث وهى تبكى . وكانت هذه المرأة إحدى جوارى الخديو اليونانيات .

سألها الخديو إسماعيل : ما الخبر ؟

— هذا الطفل يا مولاى . .

— أحمد ؟ ماله ؟

— إنه يا مولاى يرفع عينيه إلى أعلى دائماً ، ولا يستطيع أن ينظر إلى أسفل أبداً !

وفكر الخديو قليلا ، ثم مد يده إلى جيبه وأخرج بضعة جنيهات ذهبية . .ثم نثرها على البساط . وعلى الفور تحولت عين الطفل، لأول مرة منذ ولادته ، إلى بريق الذهب وهو يتساقط على الأرض .

وعندما ابتسمت المرأة من النتيجة ، قال لها الخديو : كلما نظر الطفل إلى السماء فانثرى له ذهباً .. حتى يتعود النظر إلى الأرض !

وابتسمت الجدة قائلة فى نوبة نفاق للخديو الذى يعبد الذهب : هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاى !

***

كان هذا الطفل هو الذى أصبح فيما بعد « أمير الشعراء » : أحمد شوقى !

ولد فى سنة ١٨٦٨ فى أسرة امتزجت فيها الدماء العربية والتركية والكردية واليونانية .

كان جده وكيلا لخاصة الخديو إسماعيل ، وأبوه مفتشاً فى الخاصة الخديوية ، وهكذا ولد الطفل أحمد شوقى وسط أسرة قريبة من قصر الخديو وخاصته .

دق جرس المدرسة ، وبدأت الحصة الأولى . كان الدرس عن الجغرافيا ، وعندما انتهى المدرس من شرحه .. أشار إلى الطالب أحمد شوقى وسأله : هل تستطيع أن تحدثنى عن قارة أفريقيا .. فى كلمات موجزة ؟

وعلى الفور رد الطالب الشاب ببيت من الشعر نظمه فى لحظة . قال الطالب :

أفريقيا جزء من الوجــود   فى شكل أشبه بالعنقود !

وفوجئ المدرس بهذه الروح الشعرية المبكرة لدى تلميذه الشاب الذى لا يزيد عمره على أربع عشرة سنة ، فى حين لم يندهش زملاؤه فى الفصل .. لأنهم كانوا يعرفون أن « أحمد » يهوى الشعر منذ صباه قراءة وتأليفاً .

لقد أدخلته أسرته « كتاب» الشيخ صالح ، ثم انتقل إلى مدرسة المبتديان ، فالتجهيزية . وفى هذه المدرسة الأخيرة أظهر تفوقاً ونبوغاً .. ولهذا تقرر منحه المجانية فى التعليم مكافأة له على تفوقه .

وعندما تخرج أحمد فى المدرسة ، كان قد أصبح فى الخامسة عشرة ، وكانت موهبته الشعرية قد تيقظت ، حتى إنه بدأ يصوغ معلوماته الجغرافية التى يتلقاها فى المدرسة أبياتاً من الشعر .

وما إن أتم أحمد تعليمه الثانوى حتى ألحقه أبوه بمدرسة الحقوق ، فدخلها سنة ١٨٨٥ . وفى المدرسة وصفه أحد زملائه قائلا إن أحمد كان « فتى نحيفاً ، هزيلا ضئيلا ، قصير القامة ، وسيم الطلعة تقريباً ؛ ذا عينين متألقتين تحقيقاً، ولكنهما متنقلتان كثيراً . فإذا نظر إلى الأرض دقيقة واحدة فللسماء منه دقائق متمادية . وإذا تلفت صوب اليمين فما ذاك إلا لكى يرعى ببصره نحو الشمال ، وهو مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة هادئ ساكن وارع ، كأنما يتحدث بنفسه إلى نفسه ، أو يناغى عالماً من الأرواح . ما كان يلابسنا فيما نأخذ فيه من اللهو والمزاح ، ولا يتهافت معنا على تلقف الكرة بعد الفراغ من تناول الغداء ، أو حينما نتنفس الصعداء لانتهاء مواقيت الدراسة » .

ولكن انشغال « أحمد » عن اللهو وعن زملائه لم يكن بلا جدوى ، فقد كان حبه للشعر يتغلب عليه .. فيجعله يفكر ويطيل التفكير ، ثم يحاول ويكرر المحاولة ، لكى يجرب بينه وبين نفسه موهبته فى نظم الشعر .

***

فى مدرسة الحقوق بدأ يظهر نبوغ أحمد شوقى فى الشعر ، إلى درجة أن أستاذه فى اللغة العربية – وكان اسمه الشيخ محمد البسيونى – كان يعرض على أحمد القصائد التى ينظمها هو ، لكى يستمع إلى رأى أحمد فيها .

واختتم أحمد شوقى حياته التعليمية بعد أن انتسب أحمد أيضاً إلى قسم الترجمة فى مدرسة الحقوق ، وظل فيه مدة سنتين حصل بعدهما على الشهادة النهائية فى سنة ١٨٨٧ . وبالإضافة إلى ذلك أصبح يجيد أيضاً ثلاث لغات هى العربية والفرنسية والتركية ، مما ساعده فيما بعد على الاطلاع على ثقافات مختلفة متنوعة . وقد أدى نبوغ أحمد فى الشعر إلى إعجاب الخديو توفيق – الذى أصبح خديو مصر بعد إسماعيل – فقرر إرساله فى بعثة إلى فرنسا ليكمل ثقافته .

سافر أحمد شوقى إلى فرنسا على نفقة الخديو ، حيث قضى عامين فى « مونبلييه » ، وعامين فى باريس . وخلال ذلك سافر إلى لندن ، وقضى بها شهراً ، وسافر إلى الجزائر ، وقضى بها أربعين يوماً ، وقضى الأشهر الستة الأخيرة من بعثته فى باريس متنقلا بين المسارح المشهورة فى « مدينة النور والجمال ».

وعندما عاد شوقى إلى مصر سنة ١٨٩٢ كان توفيق قد توفى ، وأصبح عباس الثانى خديو مصر ، فقرر تعيينه فى قلم الترجمة . وخلال مدة قصيرة أصبح شوقى مقرباً إلى الخديو وشاعره المادح له ، الغاضب من أعدائه .

ومن وقت إلى آخر كان شوقى ينظم قصائد يعبر فيها عن آمال الشعب وآلامه ، ومن ذلك قصيدته « ذكرى دنشواى » التى يقول فيها :

يا دنشواى على رباك سلام ذهبت بأنس ربوعك الأيام

وقصيدته الأخرى ، التى نظمها حين ضرب الفرنسيون دمشق بالقنابل وقال فيها :

وللأوطان فى دم كل حر يدٌ سلفت ودين مستحق
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

وكذلك قصيدته الرائعة التى رثى بها الزعيم سعد زغلول ومطلعها :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عليها فبكاها

وقد تنوعت الأغراض التى نظم فيها شوقى شعره ، وكان على رأسها العواطف الدينية التى عبر عنها فى قصائد كثيرة من أشهرها قصيدته « الهمزية » التى يقول فيها مادحاً الرسول صلى الله عليه وسلم :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثنـــاء

ومن أشهر قصائده فى تلك الفترة كذلك قصيدته نهج البردة التى نظمها فى سنة ١٩٠٩ وقال فيها :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

***

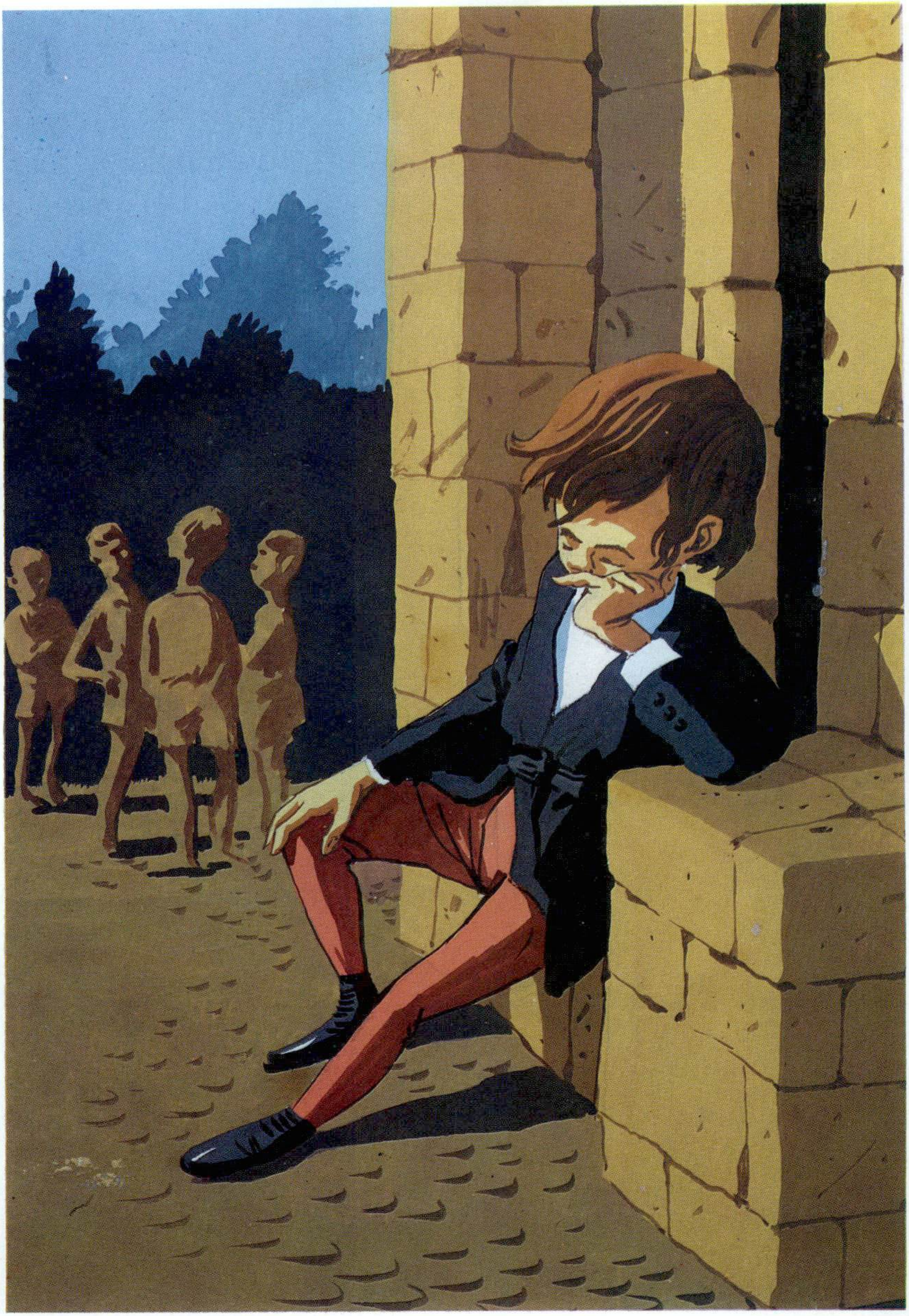

أفاق أحمد شوقى ذات يوم .. ليفاجأ بقرار يقضى بنفيه إلى خارج مصر !

كانت الحرب العالمية الأولى قد أعلنت ، وكان الخديو عباس متغيباً عن مصر فى زيارة لتركيا ، وأعلنت بريطانيا حمايتها على مصر .

وفى الوقت نفسه لم يكن الإنجليز – وهم يحتلون مصر – يطمئنون إلى ولاء الخديو عباس الثانى لهم فمنعوه من العودة إلى مصر ، وأقاموا مكانه السلطان حسين كامل .

ولأن أحمد شوقى كان يحتفظ بوفائه لعباس ، ومن قبله لتوفيق وإسماعيل ، فقد انعكست مشاعره على قصيدة قال فيها :

الملك فيكم آل إسماعيلا   لازال عرشكمو يظل النيلا
أأخون إسماعيل فى أبنائــه   ولقد ولدت بباب إسماعيلا

وخشى الإنجليز من تأثير أحمد شوقى على الشعب ، فأمروا بنفيه من البلاد .
وحينما تحركت السفينة من بورسعيد حاملة أحمد شوقى وأسرته ، اختار هو أن يهبط فى أسبانيا حيث أقام فى أحد فنادق مدينة « برشلونة »

* * *

كان الفندق يقع فى ضاحية جميلة ترتفع عن سطح البحر ، وتحيط بها غابات الصنوبر من ناحية ويمتد حولها البحر من ناحية أخرى تمخره السفن الذاهبة والراجعة .

ولكن روعة المناظر الطبيعية حول أحمد شوقى لم تخفف من حزنه على حاله ، أو من انشغاله على بلاده ، أو من شوقه إلى العودة إليها وحنينه لأيامه فيها . لهذا نظم شوقى قصائد جمة فى هذه المعانى كان من بينها قصيدته التى مطلعها :

اختلاف النهار والليل ينسى   اذكرا لى الصبا وأيام أنسى

ومنها :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه   نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

أمضى شوقى خمس سنوات فى منفاه ، كان خلالها يقرأ كثيراً عن تاريخ العرب فى الأندلس ، ويرى حوله آثار العرب فى قرطبة وأشبيلية وغرناطة ، ويترجم كل هذا إلى شعر يتغنى فيه بحضارة العرب فى الأندلس ، ويتحسر على نهضتهم التى زالت ، ودولتهم التى سقطت هناك ..

* * *

عاد أحمد شوقى إلى مصر عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى ، بعد أن عفت السلطات عنه . عاد ليجد الشعب كله ناهضاً فى ثورة سنة ١٩١٩ المشهورة . ومن الآ ن فصاعداً لم يعد شوقى شاعر القصر وإنما أصبح يولى اهتمامه لقضايا الشعب وآماله وأحلامه .. وأصبح يقضى معظم وقته فى نظم الشعر والتجول والسفر .

كان أحمد شوقى يحب السفر ، وكان يسافر سنوياً إلى بلاد كثيرة خصوصاً سوريا ولبنان وفرنسا . وفى إحدى زياراته تلك نظم قصيدته المشهورة عن مدينة « زحلة » اللبنانية ، التى قال فيها :

ياجارة الوادى طربت وعادنى	ما يشبه الأحلام من ذكراك
مثلت فى الذكرى هواك وفى الكرى	والذكريات صدى السنين الحاكى
ولقد مررت على الرياض بربوة	غناء كنت حيالها ألقاك
لم أدر ما طيب العناق على الهوى	حتى ترفق ساعدى فطواك

وفى أحدى زيارات أحمد شوقى للبنان ، كان يصحب معه فى الزيارة صديقه المطرب محمد عبد الوهاب ، وصديقه سليمان فوزى صاحب مجلة اسمها « الكشكول » .

وبينما كان الجميع يسهرون عند أصدقاء لبنانيين قيل لهم إن مغنية جميلة الصوت ستغنى فى إحدى الحفلات ، ولابد أن يستمعوا إليها .

وذهب شوقى مع صديقيه إلى تلك المغنية ، فقدموها لهم مع زوجها .. وكان رجلا ثرثاراً .. فراح يروى للمجتمعين قصة زواجه من المغنية ، وكيف خطفها من بيت أهلها حباً فيها وفى فنها ، ثم تزوجها برغم أنف الأهل . وظل الرجل يروى قصته مع زوجته ، حتى قامت الزوجة المغنية وبدأت تغنى قصيدة (مضناك جفاك مرقده) ، وهى قصيدة مشهورة من شعر أحمد شوقى .

وبعد قليل أراد سليمان فوزى أن يبعث السرور إلى نفس شوقى ، فسأل زوج المغنية عمن يكون مؤلف القصيدة ، فأجاب الزوج على الفور :

– الشعر إلى خيُّو . . !!

أى أن الشعر لى يا أخى . وهنا قهقه أحمد شوقى وعلق قائلا : «معلوم .. إذا كنت خطفت مراتك .. مش راح تخطف قصيدة» ؟ !

***

لم يكن أحمد شوقى يختار وقتاً محدداً لنظم الشعر . فقد كانت الخواطر والأفكار تهبط عليه فى أى مكان ، وفى أى وقت من اليوم .

ولقد كتب عنه أحد أصدقائه قائلا : « مرة منذ عشرة أعوام (سنة ١٩٢٢) جاء (أحمد شوقى) من منزله فى المطرية فوجدنى بالمكتب فى الساعة الحادية عشرة ونصف ، فأملى على ثمانية وعشرين بيتاً من قصيدته التى مطلعها (قفى يا أخت يوشع خبرينا) ثم قال لى : لا تبتعد عنى ، حتى إذا جاءنى شىء أمليته عليك . وخرج يمشى حول العمارة ، فكان كل بضع دقائق يعود فيملى على خمسة أو ستة أو سبعة أبيات . وأخيراً دخل المكتب ، وجلس على مقعد ، وأخذ يمر براحته اليسرى على رأسه ، ففهمت أنه ينظم فى سره ، لأنه كثيراً ما كان يفعل ذلك فى أثناء النظم ، ثم قال : اكتب ، فكتبت ، وكتبت ونظرنا فى الساعة ، فإذا هى الواحدة بعد الظهر ، فقال : كفى ، أعطنى ما كتبت لأنى على موعد فى هذه الساعة .. فقدمتها له ، بعد أن عددت أبياتها ، فوجدتها أربعة وثمانين بيتاً » .

وحكى صديق آخر قال : إنه لازم أحمد شوقى مرة فى أحد المطاعم على جسر (كوبرى) قصر النيل بالقاهرة ، وفجأة شرع شوقى فى نظم قصيدة « النيل » الرائعة ، التى غنتها أم كلثوم بعد ذلك بسنوات ، وفيها يقول شوقى أبياته المشهورة :

من أى عهد فى القرى تتدفق   وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من   عليا الجنان جداولا تترقرق

وكان شوقى « . . كل نصف ساعة يركب مركبة خيل ، ويسير فى الجزيرة بضع دقائق ، ثم يعود إلى المنضدة التى كان يجلس عليها ، فيكتب عشرة أبيات أو اثنى عشر بيتاً . وهكذا حتى انتهت القصيدة فى ليلة .. إلا بيتاً استعصى عليه ، ولم يتمكن منه إلا بعد يومين .. » .

ولقد كان من عادات شوقى أن يتجول فى الأحياء الشعبية ، لكى يلاحظ ويراقب ويتأمل حياة الناس البسطاء العاديين . وحينما يتعب من السير كان يركب الترام ، جالساً فى المقعد الخلفى من العربة المقطورة لأنه من هذا المقعد يستطيع أيضاً أن يلاحظ ويتأمل غيره من الركاب فى صمت ، على حين يجد المعانى والصور الشعرية فى عقله وتتردد على لسانه وتتراكم فى ذاكرته .

***

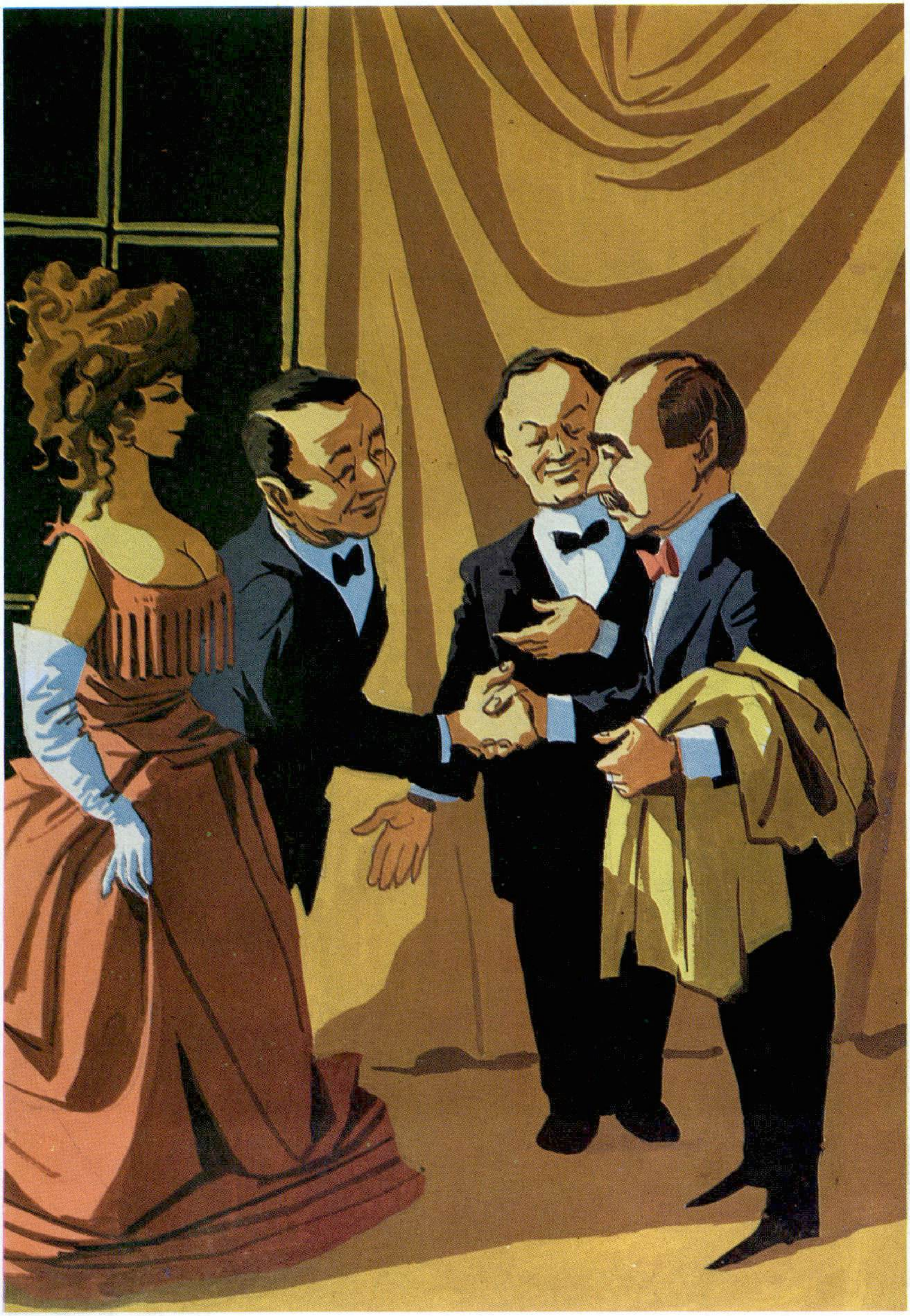

كان الوقت خريفاً .. ومدينة باريس تصبح فى أجمل صورها فى هذا الوقت من كل سنة .

وفجأة .. وبينما كان أحمد شوقى يسير فى الشارع مع صديقه الموسيقار الشاب محمد عبد الوهاب، قال شوقى :

– أريد أن أنصف تلك المرأة . إنها امرأة مظلومة . ظلمها الناس والتاريخ .. وظلمتها سمعتها .

وسأله محمد عبد الوهاب : أى امرأة يا باشا ؟

– كليوباترا يا محمد ..

– لماذا كليوباترا بالذات ؟

– لأنها امرأة مظلومة .. وأريد أن أنصفها .

لقد بدأ عقل أحمد شوقى ينشغل بهذا الموضوع فجأة . إنه خلال زيارته هذه لباريس كان يتردد يومياً على مكتبة السوربون الفرنسية لقراءة كل ما كتب عن الملكة المصرية الجميلة كليوباترا . إنه يعطى عبد الوهاب قصيدة نظمها حالا كجزء من الرواية ، وهى قصيدة :

« أنا أنطونيو وأنطونيو أنا   ما لروحينا عن الحب غنى »

وانهمك عبد الوهاب هو الآخر فى تلحين القصيدة الجديدة . وقبل أن يغادر الاثنان باريس عائدين إلى مصر ، كان عبد الوهاب قد انتهى من اللحن ، وبدأ يردده لشوقى . وكلما سمع شوقى مقطعاً لعبد الوهاب صاح قائلا : برافو يا محمد .. أنت هايل .. أنت عظيم !

***

إن مسرحية « مصرع كليوباترا » واحدة من سبع مسرحيات شعرية غنائية كتبها أحمد شوقى . لقد نظم شوقى ثلاث مسرحيات تدور حول مآس وطنية هى : « مصرع كليوباترا » و« قمبيز» و« على بك الكبير» . كما ألف ثلاث مسرحيات غنائية أخرى تدور حول عواطف عربية وإسلامية هى « مجنون ليلى » و« عنترة » و « أميرة الأندلس » . وأخيراً كتب مسرحية غنائية كوميدية اسمها « الست هدى » .

لقد دوّت الروايات التمثيلية التى كتبها أحمد شوقى فى سمع العالم العربى كله . وأثبت بتلك الروايات أن شعرنا لا يتخلف عن الشعر الغربى ، وأن شعراءنا يستطيعون اقتحام ميدان الشعر التمثيلى الذى سبقتنا إليه أوربا .

ولقد ألف شوقى هذه المسرحيات فى وقت كانت اللغة العامية تطغى فيه على المسرح المصرى ، ولم تكن هناك محاولات جادة من الشعراء لاقتحام ميدان الشعر التمثيلى . وبرغم الهجوم الذى تعرض له شوقى من بعض النقاد فى البداية ، فإنه استمر يقتحم هذا الميدان الجديد تماماً على الشعراء المعاصرين له .

***

كان التاريخ هو ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، وكان الوقت هو الثانية صباحاً .

إن الخادم النوبى « أحمد كوشه » الذى يعمل فى منزل أحمد شوقى ، خرج مذعوراً من غرفة سيده وهو يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وسأله زميله الآخر : خير ؟ ! ما الخبر ؟

رد الخادم والدموع تتساقط من عينيه : أنا كنت نائماً ، ولكنى استيقظت فجأة على رنين جرس متواصل فهرعت إلى غرفة الباشا .

– وبعد ؟

– سمعته يقول : « لا فائدة .. انقطع الأمل » ..

– وماذا حدث ؟

– مات الباشا .

***

لقد مات أحمد شوقى ، بعد سنوات طويلة كان خلالها بحق « أمير الشعراء » ، وهو اللقب الذى أطلقه عليه المعجبون بعبقريته الشعرية ، وهو أيضاً لقب استحقه شوقى عن جدارة . وعندما أقيم حفل لتكريم شوقى قبل وفاته بخمس سنوات اشترك فيه مندوبون من الدول العربية ، جاءوا ليبايعوه بلقب « أمير الشعراء » .

لقد حظى شوقى بتكريم ضخم ومستمر ، حتى إن زميله وصديقه ومنافسه فى نظم الشعر حافظ إبراهيم أعلن باسمه واسم شعراء البلاد العربية البيعة لشوقى عندما قال :

أمير القوافى قد أتيت مبايعاً   وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

***

وهكذا مات شوقى، بعد أن ملأت شهرته الآفاق ، واحتفى به الشعراء وكبار رجال عصره . وعقب وفاته رثاه بشارة الخورى فى قصيدة رائعة افتتحها قائلا :

قف فى ربى الخلد واهتف باسم شاعره   فسِدْرَةُ المنتهى أدنى منابره

وامسح جبينك بالركن الذى انبلجت   أشعة الوحى شعراً من منائره

ورثاه صديقه خليل مطران فى قصيدة أخرى قال فيها :

كالشمس ما آبت أتت بمجدد   متنوع من زينة وضياء

هبة بها ضنّ الزمان فلم تتح   إلا لأفذاذ من النبغاء

***

هذا هو أمير الشعراء أحمد شوقى .. الذى قال عنه أحد كبار نقاد الأدب عندنا بحق إنه : شاعر العصر الحديث .